



التجلي الثقافي في التخييل السردي المغربي بالعربية والفرنسية "الزاوية"، و"فسيفساء باهتة"، و"سبحة العنبر"

نماذج



This work is licensed under a
Creative Commons Attribution-
NonCommercial 4.0
International License.

ابتسام الهاشمي

باحثة في تحليل الخطاب السردية، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب بنمسك.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ١٩ مايو ٢٠٢٤م

الكلمات المفتاحية: السرد المغربي، الثقافة المغربية، اللغة

العربية، اللغة الفرنسية

Abstract

This study seeks to shed light on various cultural representations in Moroccan narrative imagination in both Arabic and French languages, through the analysis of three texts from the colonial period: "Mosaïques ternies" by Benazzouz Chat (1932), "Al-Zawiya" by El Tahami Al-Wazzani (1942), and "Le Chapelet d'Ambre" by Ahmed Sefrioui (1949), in order to highlight the aspects through which the narrator refers to cultural contexts and references in his narrative work.

These texts are not just narrative works that present specific events and imaginations, but they are also

الملخص

تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على مختلف التمثيلات الثقافية في التخييل السردية المغربي باللغتين العربية والفرنسية، وذلك من خلال مقارنة ثلاثة نصوص تنتمي إلى فترة الاستعمار، وهي "فسيفساء باهتة" لبعزوز الشاط (١٩٣٢)، و"الزاوية" للتهامي الوزاني (١٩٤٢)، و"le chapelet d'ambre" (سبحة العنبر) لأحمد الصفريوي (١٩٤٩) من أجل إبراز الجوانب التي يحيل بها السارد إلى أنساق ومراجع ثقافية في عمله السردية.

هذه النصوص ليست مجرد عمل سردي يُقدّم أحداثاً ومخياًلاً مُعيّناً فحسب، بل إنها - إضافةً إلى ذلك - خطابٌ ثقافيٌّ وفكريٌّ، ونتائجٌ تأثرات وتأثيرات داخل أنساق ثقافية. وإذا كانت اللغة المتداولة فيها معياراً للانفصال، فإن الأنساق الثقافية التي تُحيل إليها، بما فيها النسق الاجتماعي، والنسق التراثي، والنسق الديني معيارٌ قوي للاتصال.

مصدر من مصادر الهوية، وهي مصدر صدامي أيضًا، كما نراها الآن في حالات "الرجوع" إلى الثقافة والتراث.

يمكن اعتبار الثقافة منظومةً من القيم والمبادئ في جماعة معينة، مما يجعل العلاقة بين الإبداع الأدبي - السردى والثقافة علاقةً حتميةً بين المعنى والمبنى، وهذا ما يبدو - على سبيل المثال - في رؤية لوسيان غولدمان حين ربط بين الأدبي والاجتماعي في النص عبر تلك العلاقة التناظرية بين "البنية الاجتماعية" - الأيديولوجية للمجتمع، وبين الأثر الأدبي باعتبارها "بنية دالة" من جهة أخرى.

يظل السارد رهين ثقافة وحياتة اجتماعية معينة، فهو لا يمكن - بغض النظر عن موقفه - أن يتجاوز الأنساق الاجتماعية والثقافية والإيديولوجية، وهذا ما يتبين في مواقف شخصوه التي يستوحها من نسق ثقافي يؤطر حياتها، ونمط علاقتها، وعاداتها، وأفكارها، وأخلاقها، مما يجعل منها شخصًا تحمل في جوهرها وعيًا ثقافيًا ما. وعليه، فالسرديات تعبّر عن رؤية إلى العالم، وتعبير - من ثم - عن الثقافة بوصفها مكونًا جوهريًا في الأعمال الأدبية يمنحها بُعدًا واقعيًا ومعرفيًا. وبمن ثم، تتجلى الأنساق الثقافية في التخييل السردى عبر مجموعة من الأنساق الفرعية، بما فيها اللغة، والدين، والأخلاق، والأعراف، والمعتقدات، وتُشكّل - في مجملها - مرآة تعكس حياة مجتمع ما في زمن ما. وفي هذا السياق يكون السرد الأدبي أحد المظاهر الثقافية وأحد حقولها المتعددة، مما يدفعنا إلى اعتباره خطابًا ثقافيًا بامتياز.

* **التجلي الثقافي في التخييل السردى المغربى في زمن الاستعمار**

ظل التخييل السردى المغربى في فترة الاستعمار مرتبطًا بواقعه السوسيو - ثقافى؛ فقد كان السارد المغربى يَنْهَلُ

cultural and intellectual discourses, products of influences and impacts within cultural contexts. If language is a criterion for separation, then the cultural contexts it refers to, including social, heritage, and religious contexts, are strong criteria for connection.

Keywords: Moroccan narrative, Moroccan culture, Arabic language, French language

* **تمهيد**

* **التخييل السردى والثقافة**

ليس السرد شكلاً ورمزاً وإيحاءً فحسب، بل إنه نظام يعكس سياقات ثقافية وتاريخية واجتماعية وأخلاقية أيضًا. وعليه، فإن كل نص أدبي لا يمكن أن يتفاعل مع وجوده بمنأى عن تغيرات عوامله السوسيو - ثقافية. الحديث عن التجلي الثقافى في التخييل السردى ينقلنا منذ الوهلة الأولى إلى صلب إشكالية العلاقة بين السرد والثقافة، أي بين الإبداع والمجتمع.

لا شك أن علاقة التخييل السردى بالثقافة، أو علاقة السارد بالثقافى علاقةً جدليةً مسلّم بها؛ فالسارد لا يمكن أن ينطلق من فراغ، إنما يستند إلى واقع ثقافى يعيش بداخله ويتعايش معه، بيد أنه يعيد صياغته انطلاقًا من موقفه من العالم، إما بالتأييد والتمثيل، وإما بالإبطال والإعراض.

إذا كانت للسرد أدواته التي تتمثل في الشخصوى والأمكنة والحيوات وعولم المعنى ونقائضه، فإن للثقافة طرائقها في التعبير والمعالجة والتفسير والتحليل؛ فهي مخزون كل مجتمع من أفضل ما تحققت المعرفة به والتفكير به (...). إنما

من مَعينه الثقافي دون أن ينفصل عن محيطه، لاسيما أن الواقع في هذه المرحلة كان يقوم بدور فعّال في بلورة رؤية الكاتب ومواقفه من العالم.

حاولت سرديات هذه المرحلة - بغض النظر عن سؤال أجناسها - أن تصوغ - إن صحّ التعبير - مُعربًا تخييليًا، وكانت تشكل دلالاته الخفية والظاهرة في الوقت الذي كانت تعكس فيه تناقضات المغرب ورهاناته في تلك المرحلة التاريخية الصعبة. سرديات المغرب في فترة الاستعمار مقارنة للذات والموضوع ضمن مشروع ثقافي تراهن به على مسار الثقافة ودورها التاريخي في التحديث والتحرير من تبعية الآخر.

ومن الملاحظ أن التخييل السردى المغربى قد انصبغ آنفد بصبغة ثورية على الواقع، وسائر النظرية الاشتراكية، ودخل في أتون مرحلة جديدة تتشابه فيها الثورة والهزيمة نتج عنها ما يُصطلح عليه بـ "أدب الأزمة". والواقع أن هذه النصوص كانت - بحكم محيطها السياسي - معتركا لصراع إيديولوجي أيضا، فكان الكاتب يتبني، من ناحية، موقفاً محدداً، وهو يساير تلك التحولات التي كانت تعصف ببيئته الاجتماعية والثقافية والسياسية، وإن كان قد حاول أن يكتب، من ناحية أخرى، نصاً يتعالى على هذه التحولات في مجتمعه.

ومن الجدير بالذكر أن خطابات النص السردى خلال فترة الاستعمار قد تباينت من حيث لغة الكتابة، ومن حيث تصوير القيم والأفكار، فكان الواقع يفرض على الكاتب نظاماً ثقافياً سائداً، مما جعل سرديات تلك المرحلة رصدًا ثقافياً قبل أن تكون تخيلاً إبداعياً.

"فسيفساء باهتة" لبعزوز الشاط عام ١٩٣٢، وترجمها ترجمة عثمان بنشقرون، و"الزاوية" للتهامي الوزاني عام

١٩٤٢، و"le chapelet d'ambre" (سبحة العنبر) لأحمد الصفرى عام ١٩٤٩، سرديات تتميز بمجملاتها الثقافية المغربية، فهي تقتبس - بغض النظر عن تباينها اللغوي - اللغة، عوالمها، وأحداثها، وشخصها من البيئة المغربية عبر نسيج نصي تتشابه فيه العناوين والأعلام والوقائع لتخلق حيوات جديدة للشخص وكينانته التخييلية.

هذه النصوص تزخر بالمادة التخييلية والثقافية المحلية، بدءاً من عتبة العناوين: "فسيفساء باهتة" الذي تُحيل إلى تلك القطع الملونة الصغيرة من الرخام أو الحصباء أو الحزّز التي تشكل صوراً ورسوماً وزخارف تزين أرض البيت أو جدرانها، وهي جزء من فن البناء المغربى التقليدى، و"الزاوية" التي تُحيل إلى عوالم الذكر والزهد، وهي عند المتصوفة مكان للعبادة والإيواء وإطعام الواردين والقاصدين، وتُعتبر - إضافة إلى ذلك - مدرسة دينية ودار ضيافة تشبه الدير المسيحية في القرون الوسطى.

أما "سبحة العنبر" فعنوانها سرعان ما يحيلنا إلى الشعائر الدينية، فالسبحة أو المسبحة - مثلما تحددها القواميس العربية - "خرزات منظومة في خيط يُعُدُّ بها المسبِّح أو المصلي مرّات التسبيح".

وردت في القرآن الكريم كلمة التسبيح في عدة سور وآيات، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

لا تختلف السبحة في شكلها عن القلادة، إلا أنه من الصعب تحديدها الزمنية التي تحول فيها استخدام القلادة إلى سبحة لغرض ديني، بيد أنه من المرجح أن فكرة السبحة بدأت عند السومريين ثم انتقلت إلى ثقافات أخرى كالفرعونية والهندية والفارسية وإلى ثقافات أتت من بعدها. والواقع أن السبحة أو القلادة لا تخلو في تاريخ الأثروبولوجيا الثقافية من الطابع الروحاني والسحري والأسطوري، فالإيمان بالخرافات والأساطير والمعتقدات الطبية الخرافية القديمة قد دفع الإنسان إلى الاستعانة بالقلائد في ممارسة شعائره الثقافية والدينية المتوارثة. وعليه، فإن هذه العناوين ليست مجرد عتبات نصية فحسب، بل إنها حمولة ثقافية أيضاً.

* الأنساق الثقافية في التخيل السردي المغربي بالعربية والفرنسية

١- النسق الاجتماعي

قبل أزيد من ثمانين عاما بدأ السارد المغربي في محاولات خلق نص سردي يُحايتُ الواقع، ففي عام ١٩٣٢ استصُدِّرَ لبنعوز الشاط "فسيفساء باهتة" التي شكلت منعطفاً أساسياً في تاريخ السرد المغربي، وبوأت الكاتبة مكانة الريادة في حقل الرواية المغربية المكتوبة باللغة الفرنسية، وعادت، اليوم، إلى المشهد الإبداعي المغربي بترجمة عثمان بنشقرون التي صدرت في ٢٠١٩.

بعد ذلك بسنوات قليلة، في عام ١٩٤٢، صَدَرَتْ سيرةُ النهامي الوزاني "الزاوية" التي وضعت حجر الأساس في بناء الرواية المغربية باللغة العربية، وفي عام ١٩٤٩ صدرت رواية "le chapelet d'ambre"، أو (سبحة العنبر)

لرائد من رواد الرواية الكلاسيكية المغربية باللغة الفرنسية، وهو أحمد الصفرىوي.

سرعان ما يقترب قارئ هذه الأعمال السردية المغربية من الحياة اليومية داخل المجتمع المغربي انطلاقاً من التقاط تفاصيل مدنها العريقة مثل طنجة بشخصها ومعلمها وأحداثها في "فسيفساء باهتة" التي تروي بلغة الآخر مسار عائلتين مغربيتين. وغير بعيد من طنجة تحنفي زاويةً النهامي الوزاني بمعلم تطوان الإنسانية والروحية وتروي حكاية إنسان مغربي ظلّ لصيقاً بعوالم المعرفة والتصوف. أما أحمد الصفرىوي فقد اختار في (سبحة العنبر) الغوصَ في مضايق فاس العميقة برؤية تفارقية.

هذا التباين التصويري في السرديات جعل من الفضاء المدني مرجعاً يستقي منه السارد تيمات التي ترتبط بالوعي الثقافي والاجتماعي وتحاول أن تكشف على جغرافيا المدينة باعتبارها إطاراً يجمع بين الشخصيات، ففي حكاية "LA PORTE ENLUMINEE" (الباب المضاء) في (سبحة العنبر)، تتناثر حكايات الطفل بين بيته في فاس وأسواقها وممراتها. يقول مثلاً: « هذا الأحد، تشغل أمي بالغسيل... هذا يعني يوماً لن نأكل فيه أي شيء... أكتفي بتحضير شريحة من الخبز ملطخة بالزبدة الفاسدة، وأنطلق في مغامرة في شوارع فاس، أغرق في قلب المدينة، كأنني في حلم، اليوم أستكشف حي "الرميلة"... بشوارعه المليئة بالشمس، تفوح منها رائحة الغبار وروث البقر... هذا السوق ليس سوقاً حقيقياً، وليس شبيهاً بذلك الذي رسمته في مخيلتي... »

يسرد تفاصيل ومشهدات كثيرةً بعين طفل يجول في أزقة فاس، ويتردد على الواقع الشعبي حيث ينقل للقارئ

دهشة من بائع البقول والمواد الغذائية (البقال)، وبائع الحُضْر، والساقي (الكراب)، ومن حكايات أخرى يصادفها في حياته اليومية المضطربة.

هذه الحياة اليومية الرتيبة نجدها كذلك في حكايات "فسيفساء باهتة". في نص (يوم الصلاة) يعرض السارد حياة النساء والرجال في المدينة، قائلاً: « كانت الحياة كامنة ملغزة، تسير بنفس الوتيرة، مستخفة بالقلق في شأن أي شيء لم يلمسها في اهتماماتها الفورية واحتياجاتها اليومية. كانت النساء يولين كامل الاهتمام لإنجاز أشغال البيت في فناء الدار؛ وكان الرجال يغفون في متاجرهم في انتظار زبون، أو كانوا يتجادبون أطراف الحديث على باب مقهى من المقاهي. »

هذه النصوص التي تنتمي إلى الجيل الأول من الكتاب المغاربة باللغة الفرنسية ركزت، في المقام الأول، مثلما يُعتبرها عبد الكبير الخطيبي «على وصف المجتمع المحلي، على رسم بورتريه دقيق لمختلف فئاته الاجتماعية، أي على البوح: «هكذا نحن، وهكذا نعيش»، ولهذا فهي شهادة حول حقبة ووضع محددين».

بينما كانت المدينة في "الزاوية" وصفاً للمجتمع التطواني الذي لم يخرج عن نطاق المجتمع المغربي التقليدي، نتعرف في سرد الزاوية إلى مدينة مغربية تعيش صراعاً بين السلفية والطرقية، وبين الخضوع للمستعمر والثورة عليه. يقول السارد، مُستحضراً ردود فعل أهل تطوان جراء الاحتلال: « وعندما احتل الإسبان تطوان سنة ١٩١٣م، تجددت كل الذكريات وهاج الناس وماجوا وأصيبوا بالذهول»

هذا السرد الاستذكاري يُعيدنا إلى تاريخ مغربي حافل بالأحداث والتحويلات، مما يمنح النصّ نسفاً سردياً كامناً يُجسّده ضمير المتكلم بوصفه شاهداً، أي عبر شخصية

"الوزاني"، ويمكن معرفة عناصر هذا النسق انطلاقاً من دلالة الهامش، وانطلاقاً من التحولات التي تطرأ على فعل الوجود وتتجلى في علاقة الشخص بالمكان والتاريخ، وإن كان بُعد المكان هو الذي يفرض نفسه على النص. وعليه، تشكل مدن تطوان، وطنجة، وفاس بؤرة الانجذاب الوجودي في النص، ولا شك أنها تُعبّر من خلالها عن بنية المجتمع المغربي.

٢- النسق الديني

تُصور هذه السرديات خلفية المجتمع المغربي الدينية ارتبطت عند الوزاني بالنشأة والتوجه وتقرير المصير. يقول في مطلع "الزاوية"، مُجيباً عن سؤال "كيف أحببت التصوف؟: « إن للبيئة سلطاناً نافذاً على النفوس وإن للوسط السيطرة الكاملة بالنسبة لتوجيه الرجل إلى ناحية من نواحي الحياة، وإذا كنت في هذه الورقات أريد أن أتحدث عن صفحة من أجمل صفحات حياتي تلك هي حياة الرهبانية والانقطاع للعبادة والتفرغ لما يظهر النفس ويهذبها، فلا بد من ربط هذه الفترة الزمانية بعصر سبقها كنت فيه صوفياً بطريق الوراثة والنشأة، فلم يكن التصوف يحتاج إلى شيء كي يتسرب إلى قرارة قلبي، بل إنني وجدت فيه من أول يوم استنشقت فيه نسيم الدنيا. »

إن حديث السارد عن نفسه يتداخل في حديثه عن المجتمع المغربي، وهو ينقل إلينا آراء أفراد وأفكارهم ورؤيتهم إلى الأولياء والصالحين، وإلى الأسر التي تتوارث المعرفة والتصوف، وإلى سرديات تلقي الطلبة للعلم على يد شيوخهم، وعن عن العوامل التي تشكل بنية الإنسان والمجتمع في تلك الحقبة، بما فيها من حوافز ونوازع وبواعث.

تصور "الزاوية" أسلوب التعليم المغربي التقليدي، وكيف كان الطفل يتعلم القراءة والكتابة في الكتاب، أي في

تلك المدرسة القرآنية التقليدية المغربية التي كان لها دور جوهري في تكوين أجيال مغربية مختلفة. ولذلك كان من البديهي أن يكون الكتاب جزءاً لا يتجزأ من سرديات تلك المرحلة التاريخية. يقول بنعوز الشاط: « كان الفقيه يجلس على مصطبة مغطاة بنسيج من الصوف الملون، ويتجول بطرف قضيبه على صدور تلاميذه الصغار الذين تجمعوا حوله، أما الكسالى والغشاشون كما كان يسميهم، فقد كانوا يؤدبون بلا رحمة، وعندما كان يحدث هذا، يتوقف المارة للتملي في هذا المشهد، وكانوا يقولون للفقيه: "يا فقيه اضر بهم وقبل يدك" أو اللهم ارحم والديك ».

يصور السارد معاناة الأطفال أثناء تعلمهم في مجتمع يمارس فيه الدين وفقهاؤه تأثيراً قوياً على الناس، وعلى الأطفال بصفة خاصة حتى إن الوازع الديني كان مقياساً ومعياراً ثقافياً يتحكم في ذهنية المغاربة آنذاك، وهذا ما يتجلى في الحضور القوي التي تحظى به الزوايا في هذه النصوص، فنجد إحالات إلى الزاوية الحراقية، والزاوية الدرقاوية، وزاوية احماشة، وزاوية عيساوة.

هذا التعدد في الزوايا يعكس ذلك الدور الجوهري الذي كانت تضطلع به في التأطير الديني، ويكشف عن تعدد المواقف السياسية والفكرية التي كانت تتباين بين التطرف والاعتدال، وبين العداة والمآزرة. وإلى جانب بُعد الزوايا يبدو الوازع الديني في الاهتمام بيوم الجمعة دون غيره من الأيام، وذلك من من خلال عادات المغاربة وطقوسهم في هذا اليوم. في "فسيفساء باهتة" يتحدث السارد عن شخصية العلمي الذي: -

« يتعطل كل جمعة، إنه اليوم الوحيد الذي يرتدي فيه جلباب العيد ويذهب لأداء الصلاة في الجامع الكبير،

وهو اليوم الذي يذهب فيه إلى الحمام ويعوض زوجته في الذهاب إلى السوق. »

كما يرمز يوم الجمعة إلى الوحدة والألفة بين أفراد العائلة. في (سبحة العنبر) يقول الطفل السارد: « غالباً ما يعود (الأب) متأخراً لتناول العشاء ويجدني مستلقياً. أراه فقط يوم الجمعة. في ذلك اليوم، نذهب سوياً إلى المسجد للصلاة معاً ثم إلى المقبرة للترحم على قبر أجدادي.. »

كما تحضر في بناء هذه السرديات المغربية تلك النفحات الصوفية التأملية التي نستشق عطورها في تجليات الوزاني، وهي تشير - بتعبير المتصوفة - إلى ما ينكشف في قلب الصوفي من أسرار الغيوب. يقول هذا الوزاني: « ضاقت النفس ووضعت هذه الدنيا في عيني، وطمحت ببصري إلى العلو، وصدق عزمي في القيام بثورة على نفسي وعلى أسلوب حياتي وعلى سائر أوضاعي، واقتنعت بأن العلم الذي أطلبه والذي تميل إليه نفسي ليس هو العلم الذي يدرس في المساجد .. »

أما سارد سبحة العنبر فيقول، وهو يحاول أن ينتقل من واقعه إلى واقع العوالم الإلهية: « مولاي، أخاف من البرد والليل، جئتك لاجئاً لمملكته، لا وقت لدي للكراهية، ولا قوة عندي للمقتال... »

استثمار التصوف، بأحواله ومقاماته وظواهره، في السرديات المغربية في تلك المرحلة ليس مجرد إحالة ثقافية فحسب، بل إنه رسالة وجدانية تُبلِّغ قيماً وأفكاراً محددة أيضاً كما هي الحال في "فسيفساء باهتة" حين يستحضر السارد عبد الرحمان المجذوب وقدر العلم باعترافها نموذجين لسمو العقل ورحابة الأفق.

٣- التجلي التراثي

بالإضافة إلى الخطاب الصوفي تشمل هذه السرديات خطابات أخرى تستحضر فيها التراث الشعبي.

يقول السارد في "الزاوية": « وكان لجدتي أم والدي أثر عظيم في نشأتي لأنها هي التي تولت تربيتي، فكانت رحمها الله تتعهدني بالأحاديث النافعة والحكايات المؤثرة المهدبة. » ويقول في سياق آخر: « واخترت إحدى المناسبات فسألت جدتي عما يفعله الناس إذا صدر عنهم قسم فحنتوا فيه ، فقالت لي يا ولدي إن الصالحين لا يقسمون بارين ولا حائنين وإذا صدر عنهم شيء من ذلك فإنهم يصومون ثلاثة أيام ويستغفرون الله ثم لا يعودون إلى القسم.. »

غالبًا ما تتم الاستعانة بالتراث الشعبي عبر فعل الحكيم الذي يبدأ - عادةً - على لسان امرأة، مما يجعل فعل الحكيم في "الزاوية"، وبخاصة حكي الجدة، مرجعًا في البناء المعرفي عند الوزاني، فيصير الحكيم فنًا، و ذائقةً، و حضورًا، وفكرةً، و رأيًا...

كما يحضر الحكيم في قالب شعبي، أي في تلك الحكايات الشعبية التي أوردها السارد في "فسيفساء باهتة" مثل حكاية "الرجل الأحذب والجن في الحمام"، وحكاية "لالة عايشة بنت الجني". إن حضور "الجني" في النص تجسيدًا لمعتقد راسخ في الثقافة المغربية يؤمن بقدرات هذا الكائن الخارقة في تغيير حياة الإنسان، وغالبًا ما يمثل الجني في المعتقدات السحرية في المغرب رابطًا خفيًا بين "ساحر" و"مسحور".

ومن الملاحظ أن سرد الحكايات يكون - في أغلب الأحيان - على لسان امرأة، فبينما تتبوأ فيه الجدة مقام الحكيم في "الزاوية"، تُسُخ نساءً كثيرات خيوط الحكاية في

"فسيفساء باهتة" مثل "العمة أمينة" و"العمة زينب" في حكايات قبل النوم.

وعليه، فإن حضور الحكيم النسائي مرجع ثقافي، أما التمثلات الشعبية في التخيل السردية، فهي إحالات إلى الوعي المغربي السائد آنذاك، وتصويرًا لنفسية المغاربة ومداركهم ورؤيتهم إلى العالم. غير أن ما يميز هذا الحكيم هو الارتكاز إلى النقل الشفهي، والانتماء إلى الثقافة التقليدية إضافةً إلى المضمون الديني.

تتميز الثقافة المغربية بثناء موروثها الشعبي، فكان من البديهي أن يرتبط التخيل السردية بها، ويوظفها لرصد واقع المجتمع المغربي في بدايات القرن العشرين، ومن تجليات هذا الحضور استمثار الأمثال الشعبية، والأناشيد الوطنية، والذاكرة التقليدية المغربية، والتراث المغربي بما فيه الرّي النسائي. يتحدث السارد في "فسيفساء باهتة" عن القفطان المغربي قائلاً: « كانت ترتدي قفطانا طويلًا أخضر من الساتان الحريري، يصل إلى حد كاحليها ، كان مزخرفًا طويلًا بأزرار كبيرة، نسجتها بنفسها من زغب الصوف والخيط المذهب، كان يبرز من تحت جزدان أبيض من قماش الموسلين الرهيف مقفولًا بسلسلة أزرار بيضاء متتالية، ، كبيرة كحبات البازلاء، كانت متحزمة بزوار مغربي ضيق، مطرز بزخارف عربية من الحريري... »

وصفُ القفطان المغربي والأزياء المغربية الأخرى في أدق مكوناتها يجعل من هذه النصوص - من خلال متخيلاتها الاجتماعية والثقافية، ورؤياتها، ومرجعياتها، ولغاتها رهينةً بالسياق الثقافي والتاريخي الذي كُتبت فيه، ورهينةً بالهوية التي ينتمي إليها كاتبها.

وتبدو الهوية المغربية - إضافة إلى ما ذكرناه سابقاً - في نقل الواقع المغربي كما هو إلى المتلقي، وهذا ما يعكسه الصفيروي مثلاً، وهو يستعين بالقاموس اليومي المغربي دون أن يُترجم معناه إلى الفرنسية مثلَ الكلمات التالية: Fkeh- SOUK- Moeudden-Mihrab-.Guerrab.

وإلى جانب القاموس اليومي تستعين هذه النصوص بأسماء مغربية تقليدية مثل "الحاج حماد" و"دادا مسعودة" في (سبحة العنبر)، و"ارحيمو" و"ريحانة" في "فسيفساء باهتة". وكلُّ وظيفة من هذه الوظائف السردية طريقةً من طرائق التسريد والتخييل في نسيج حكائي متشابك ومتعدد.

* النتائج

لقد حاولنا من خلال هذه الدراسة تسليط الضوء على نصوص سردية تخيلية تنتمي إلى حقبة زمنية واحدة، وإلى كتاب مغاربة يختلفون في لغة الحكيم والكتابة.

وفي مقارنة التجلي الثقافي في نصوصهم توصلنا إلى ما يلي:
١- تمثل "الزاوية"، و"سبحة العنبر"، و"فسيفساء باهتة" تخيلاً سردياً مغربياً لكتاب مغاربة تتباين لغاتهم وكتبتهم، غير أنهم يتحدون في مكان سردياتهم وزمانها.

٢- تتضمن هذه النصوص حمولةً ثقافيةً وإيديولوجيةً بما تحويه من أنساق اجتماعية، ودينية، وتراثية.

٣- يمكن اعتبار هذا النوع من التخييل السردية وثيقةً ثقافيةً لمغرب بدايات القرن العشرين.

* المراجع

أولاً- المراجع العربية

باحثة في تحليل الخطاب السردية، جامعة الحسن الثاني، كلية

الآداب بنمسك

إدوارد سعيد، "الثقافة والإمبريالية"، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، ط ٤٤، ٢٠١٤، ص ٥٩.

زيد روف، الأثر الأدبيولوجي في النص الروائي، مؤسسة النوري للطباعة والنشر، دمشق، ط ١، ١٩٩٣، ص ١٩١-١٩٢.

بنعزوز الشاط، "فسيفساء باهتة"، ترجمة عثمان بنشقرون، سيلكي أخوين، ط ١، طنجة، ٢٠١٩، ص ١٣.

مجلة "أنفاس"، العدد ٣، نقلاً عن سعيد عاهد، حتى لانساهم: أحمد الصفيروي، جريدة الاتحاد الاشتراكي، عدد، ٢٠٠٧-٢٠١٠.

التهامي الوزاني، "الزاوية"، مراجعة وتقديم، عبد العزيز السعود، جمعية تطوان أسمير، ط ٢٠٠٨، ص ٢٤.

الزاوية: ص ١٦.

فسيفساء باهتة، ص ١١٤.

الزاوية. ص ١٦٠.

الزاوية، ص ٤٤.

نفسه

فسيفساء باهتة، ص ٤٣ و ٤٤.

ثانياً- المراجع الأجنبية

Ahmed Sefrioui, " le chapelet d'ambre", ÉDITIONS DU SEUIL, Paris, 1964, P,16 .

le chapelet d'ambre, P,15.

le chapelet d'ambre, P,1٤.

Jack V. Hanry, An Introduction to the Russian Folktale, New York, ME Sharpe Inc,1999,p,4.